تجربة المدينة في شعر خليل حاوي

ميشال أبو نجم(*)

ثمّة ترابط جدليّ يبدو بيّناً بين الواقع الحضاريّ والرؤيا الشعريّة في تجربة خليل حاوي. فالواقع الحضاريّ يمدُّ الرؤيا بمادّتها الخام وعناصرها الأوّليّة، والرؤيا الشعريّة تخطُّ للواقع مجالاتِ تفتّحٍ وتكوّنٍ وصيرورة. فلا يمكن فهم الشعر الكلّي ما لم تُفهم هذه العلاقة الأساسيّة.

غير أنّ هذا لا يعني أنّ على الشعر أن يعكس بآليّة صورَ التحوّلات والأحداث التي تطفو على سطح الحياة اليوميّة: فالرؤيا الشعريّة تسلّطُ وهجها على الواقع، مُسقطةً ما فيه من زوائد، ونافذةً من خلال مظاهره المتلوّنة إلى أعماق كيانه حيث تَرْكُنُ أصولُ المشكلات وبذورُ التغيير الحقيقيّة. ولن يكون للشعر العربي الحديث أثر فاعل، ما لم يتخلّ عن دورِ ترجيعِ الأصداء والاكتفاء بغناء الواقع.

وعبر تنقّلنا مع خليل حاوي في قصيده، برز الترابط الجدليّ وبرزت تلك المرحليّة. غير أنّ هناك ثوابتَ في شعره، هي المصابيح التي تضيء جوّانية الرؤيا وجوانبها. كان الانبعاث الحضاريّ هو همّ حاوي، وهذا الانبعاث لن يحصل إلّا بالعودة إلى الفطرة والبكارة، ولن يحصل إلّا بالولادة الجديدة التي هي صورة للولادة الأولى. وكلّما كشف الشاعر، رؤيويّاً، أنّ الانبعاث حاصل، اقتربت الرؤيا من الإشراق الصوفيّ وغدت بشارة بالحياة الجديدة. من هذا المنطلق علينا أن نفهم ديوانيْه الأوّلين **نهر الرماد والناي والريح**، وهما يؤلّفان المرحلة الأولى من شعره.

في **نهر الرماد** كان الشاعر يحاول التفتيش عن يقينه، ويحاول تلمّس مكامن الداء والخصب في الأرض الخراب. وكانت تتنازعه تيّاراتُ العبث والشكّ والأمل، فانتهى من تجربته بالخلوص إلى التأكيد على حتميّة الخروج من عصر الجليد إلى فضاء الحياة الواسع، عبر «الجسر» الذي بناه الشاعر من ذاته:

يعبرون الجسر في الصبح خفافا
أضلعي امتدّت لهم جسرا وطيدْ(١).

وإذا كانت رؤيا الانبعاث تتردّد في **نهر الرماد** ما بين الشكّ واليقين، فإنّ معالم الشكّ تمّحي نهائياً وتتراجع من دائرة الضوء، لتخلي مكانَها للفرح القادم، مع **الناي والريح**:

عدتُ إليكم شاعراً في فمه بشارهْ
يقولُ ما يقول
بفطرةٍ تحِسُّ ما في رحِمِ الفصولْ
تراه قبل أن يولد في الفصولْ. (٢)

إلّا أنّ هذه «البشارة» التي زفّها الشاعر لشعبه مرهصاً بيقين «القيامة» ما لبثت أن تداعتْ تحت وطأة صلابة الواقع وعدم تقبّله للتغيير، الأمر الذي أجهض الرؤيا وأظهر أنّ الانبعاث كاذب ومشوّه. فكانت مأساةُ «لعازر» في **بيادر الجوع** عودةً على الخطى التي قطعها، فيتلاشى إيمانه وتضعف عزيمتُه ويكون عصر النحيب والتفاهة:

الجماهيرُ التي يعلكُها دولابُ نارْ
من أنا حتّى أردّ النار عنها والدّوارْ؟!. (٣)

إنّ «لعازر» القائم من بين الأموات، ليس أملَ الشاعر: هو ميت ـ حيّ، وهو رمز للحياة الزائفة والانبعاث الكاذب:

امسحي الميتَ الذي ما برحتْ
تخضرّ فيه لحيةٌ، فخذٌ، وأمعاءٌ تطولْ. (٤)

وتنسحب ملامح الأسى والخيبة على شعر حاوي الذي تلا «لعازر». وأكثر ما تظهر في قصيدة «الأمّ الحزينة» التي كتبت بعد هزيمة ١٩٦٧.

ما لثقل العارِ!
هل حُمِلْتُهُ وحدي
وهل وحدي ـ تُرى ـ كفَّنْتُ وجهي بالرمادْ
الجنازاتُ التي يحملُها الصبحُ
تدوّي في جنازاتِ السهادْ
الجباهُ انطفأتْ وانطفأ السيفُ

(*) نقدّم ههنا خلاصة الأفكار التي طرحها ميشال أبو نجم في رسالته الجامعيّة بإشراف د. رُبى سابا حبيب في الجامعة اللبنانيّة.

(١) الديوان، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.
(٢) الديوان، ص ٢٧١.
(٣) الديوان، ص ٣٢٠.
(٣) الديوان، ص ٣٣٥.

وأضواءُ البروجْ،
ليسَ في الأفقِ سوى دخنةِ فحمٍ
من محيطٍ لخليجْ. (١)

وفي «ضباب وبروق»، التي نشرها الشاعر في آذار ١٩٧٢، تنويعٌ لأصداء الهزيمة في نفس الشاعر، وغوصٌ إلى أعماقها. ففي حين كان التصميم هو نبرته في «الجسر»:

اخرسي يا بومةً تقرعُ صدري
بومة التاريخ مني ما تريد؟ (٢)

نجد أنَّ هذه النبرة تتلاشى ويشعر حاوي بطعم الهزيمة وبعبث سنوات الصراع؛ فالعمر قد مرّ، وخَبَتِ الرؤيا، والواقعُ ازداد تحجّراً:

أفرخَ البومُ / ومات النسرُ /
في قلبي الذي اعتادَ الهزيمةْ (٣)

. . . . . .

أنت يا مَنْ غوَّرتْ/في جوفِهِ الرؤيا وغصَّتْ
فاستحالَتْ جمرةً ملتهمةْ/أكلَتْ أعصابَهُ، مصَّتْ دمَهْ
تلك رؤيا اختنقت
في الكلمةْ. (٤)

لكنّ هذه النزعة السوداويّة المصحوبة بالخيبة الكبيرة ما كانت لتجثم كابوساً دائماً على صدر الشاعر. فبالرغم من كلّ ظواهر الموت المحيط، ما فتئ ينهد باتجاه التفتيش عن مكامن الخصب التي تنبض بالحياة تحت مظاهر الموت. فكانت قصيدة «الرعد الجريح» تعبيراً عن هذا التوق الملّح، وبها أرى بدايةَ المرحلة الثالثة في شعر حاوي:

وكفى بالجبهة السمراء/ما ينهلُ من رؤيا
لها في دمّنا طَعْمُ اليقينْ
تصهر الظلَّ الذي يغفو/على رملِ الموانِي
في صهيلِ الصاعقةْ. (٥)

وتستمرُّ اللهجةُ النازعة باتّجاه التفاؤل في قصيدة حاوي «رسالة الغفران من صالح إلى ثمود»:

وتباركتْ رَحِمُ التي وَلَدَتْ/على ظهرِ الخيولْ
ولدَتْ وما برحَتْ بتولْ
بطلاً يروّي سيفَه
لهبُ الشهابْ
من منبعِ الشهبِ التي التمَعتْ
حروفاً في كتابْ. . . (٦)

* * *

يقول بيتر بخمان عن خليل حاوي: «إنّه شاعر له قَدٌّ وحَدٌّ.»(٧) ولقد تمثّلت لي شاعريّةُ حاوي حنيناً مستمرّاً إلى البكارة والفطرة والعافية، ونزوعاً دائماً باتّجاه البداءة، حيث بالإمكان الانطلاق من جديد في البناء الحضاريّ. هوسُهُ كان الأصالة، ولعلّ هذا الهوس هو الدافع الرئيسي الذي قَوْلَبَ رؤيتَه للمدينة وصاغها بشكل ساقط.

الرعد الجريح بداية التّوْق عند حاوي إلى الخصب تحت مظاهر الموت.

وللوقوع على هذه الأصالة مارس حاوي فعل التعرّي من كل رموز الزيْف والانحطاط وتنكّبَ همَّ الغوص على نبضات الحياة الباقية في جسم شعبه وأطلق رؤياه في فضاء الانبعاث. إلاّ أنّ الانبعاث الذي لمحه بقي على صعيد الرؤيا، فاختنق الصوت الصادح ليغدو غوصاً في أعماق المأساة. ومن جديد يعاوِدُ الصوت سيرته الأولى، فالانبعاث واجب الوجود في سنن الشعوب ولا يتفجّر إلاّ وسط الظلمة. وحاوي شاعرٌ باحثٌ بإصرار عن مخاض الولادة الجديدة.

إنّ همّ الشاعر، في بلورة رؤياه وتجسيدها واقعاً قائماً، يطرح على الباحث جملةَ أسئلة. فهل هذا الواقع القائم، كما نعيشه، يقدّم مجالاً لافتراض انبعاث أصيل؟ وهل تغيّرت، في نظر الشاعر، الظروفُ التي دفعته لكتابة «لعازر عام ١٩٦٢» و«الأمّ الحزينة»؟.

لا أرى أنّ واقع اليوم يُفسحُ المجال أمام رؤيا متفائلة تُرْهِصُ بانبعاث قريب. فلا دليل على الانبعاث غير وجوده. إلاّ أنّ سَبْقَ الشعر هو في حضوره وفي تنكّبه همّ البحث وإثارة المسائل، حين تغيب النشاطات الذهنيّة الأخرى من فكر وفلسفة.

يبقى أنّ خليل حاوي جعل همّه تنقية الإنسان للوصول به إلى حالة من الصفاء الداخلي التي تبقى، وحدها، سبيلاً ممكناً لاستعادة هذا الإنسان حضورَه في العالم.

(١) مجلّة **الآداب**، العدد السابع، تموز ١٩٦٨، ص ٨.
(٢) **الديوان**، ص ١٤١.
(٣) من «ضباب وبروق»، راجع مجلّة **الآداب**، العدد الثالث، آذار ١٩٧٣، ص ١٢ - ١٣.
(٤) من قصيدة «الرعد الجريح»، نسخة خاصّة من الشاعر.
(٥) من قصيدة «رسالة الغفران من صالح إلى ثمود»، جريدة **بيروت المساء**، عدد ١٤، كانون الثاني، ١٩٧٥.
(٦) مجلّة **الثقافة العربيّة**، العدد الثالث، آذار ١٩٧٥.